

دلائل الإعجاز

مختلفة وأهواءٍ مُتعدية تَرى كُلاًّ منهم - لحُبِّبِهِ نَفْسَهُ وإِثَارِهِ أن يَدْفَعِ
النِّقْمَ عَنْهَا - يقدِّمُ ما يُحسِنُ من أنواعِ العلمِ على ما لا يُحسِنُ . ويحاولُ
الزَّرايةَ على الذي لم يحظَ به والطَّاعنَ على أهلهِ والغَضَّ منهم . ثم تتفاوتُ
أحوالُهُم في ذلك : فمن مغمورٍ قد استهلكه هَوَاهُ وبعُد في الجورِ مَدَاهُ ومن
مُتَرَجِّحٍ فيه بينَ الإِنصافِ والطُّمِّ لم يجورُ تارةً ويعدلُ أخرى في الحُكْمِ . فأما مَنْ
يَخْلُصُ في هذا المعنى من الحَيفِ حتَّى لا يقضيَ إلا بالعدلِ وحتى يصدُرَ في كلِّ أمرٍه
عَنِ العَقْلِ فكالشَّيءِ الممتنعِ وجودُهُ . ولم يكنْ ذلكَ كذلكَ إلا لشرفِ العِلْمِ وجليلِ
مَحَلِّهِ وأنَّ محبَّتَهُ مركوزةٌ في الطَّابَعِ ومركَّبةٌ في النُّفوسِ وأنَّ الغَيرةَ عليه
لازمةٌ للجِبلِةِ وموضوعةٌ في الفِطْرةِ وأنَّه لا عيبَ أعيبُ عندَ الجميعِ مِنْ عَدَمِهِ ولا
ضَعْفَ أضعُ من الخُلوصِ عنه فلم يُعاد إذاً إلا من فَرَطَ المحبَّةَ ولم يُسمحَ به إلا
لشدَّةِ الضَّغْنِ .

ثم إنَّكَ لا تَرى عِلْماً هو أرسخُ أصلاً وأَبسِقُ فَرَعاً وأَحلى جَندياً وأَعذبُ وِرداً
وأكرمُ نَتاجاً وأنورُ سراجاً مِنْ عِلْمِ البِيانِ الذي لولاه لم تَرَ لساناً يحُوكُ الوَشيَ
ويصوغُ الحَلْميَّ ويلفُطُ الدُّرَّ وينفِثُ السَّحَرَ ويقري الشَّهْدَ ويُرِيكَ بدائعَ
منَ الزَّهرِ ويُجنيكَ الحلوَ اليانعَ من الثُّمَرِ . والذي لولا تحفَّيهِ بالعلومِ
وعنايتُهُ بها